الثقافة

مجلة فصلية تصدر في دمشق

لوحة لم تتم

عبد الكريم غلاب

المرأة ·

عنوان اللوحة التي كانت سبيلها الى قلبه ،

تجول في المعرض الصغير كفنان هاو اعتاد أن يزور المعارض الفنية بعين لاقطة ، وعقل متفتح ، واحساس مرهف ، واستعداد لتقبل العطاء · يزور المعرض كما يزور دنيا حافلة بالعطاء الانساني في خطوط متعارضة طافحة بالغموض ، في وجه انسان متفتح للحياة ، أو برعم يقدره ، في شلالا تنهر هادر ، أو اغصان متعانقة ، في بسمة طفلة ، أو نظرة قطة ، في اللون والضوء ، في الفراغ اللانهائي ، في الوجود المغمور بالضوضاء ·

توقف عند اللوحة :

ـ شجاعة أن ترسم فنانة صورة المرأة ·

تطلع يكتشف ما وراء الرسم : ذكاء ، عزيمة ، اصرار ، تحدي ، لهفة ، جاذبية ·

ويجانب اللوحة ليكتشف : حنان ، نداء ، عطاء ··

وقف طويلا كما يقف عند أي من اللوحات الاخرى وما يزال يكتشف ·

ـ ترى هل رسمت الفنانة ملامحها ، أم لعل خيالها التقط ملامح من هذ ·وتلك ليرسم منها لوحة كتبت عنوانها: المرأة ···؟

تلفت في جوانب المعرض الهادىء يبحث بين الوجوه القليلة عن الفنانة التي تعرض لاول مرة · لم يكن يعرفها ، لم يسمع باسمها من قبل · بحث في عيون الفتيات الثلاث اللائي كن يتجولن في المعرض ، في وجوههن وقدودهن مشيتهن ، حركاتهن ، كلهن زائرات رمى بهن الفضول الفني لزيارة معرض تنظمه سيدة ·

سأل عنها ، عن الفنانة صاحبة المعرض ، وتلقى الجواب من شاب اتضح أنه مجرد راع ، دليل ، يحلو له

أن يقوم بهذه المهمة كلما عرض فنان أو فنانة ·

ـ هي في الكلية وستعود ···

في شوارع الرباط ، وقد اكتظت بالوافدين من الادارات والمكاتب ، كان يسير على غير هدى · يذكر أنه زار عدة معارض فنية في نفس المكان البارد الهادىء الذي يوحي بالماضي ويحدث عن التاريخ · خرج من بعض هذه المعارض وليس ربعه منها غير متعة آنية سرعان ما تغرق في زحام الناس والافكار وهموم الحياة · وخرج من بعضها وفي نفسه شيء تحول الى فكرة فنية أو انطباع عن الرسام · وخرج من بعضها بلقطة تحولت في قلمه الى قصة ··· ما يزال يذكر القصص التي استوحاها من لوحات يحتفظ بسلامتها في زاوية من ذاكرته · ما يزال يعتبر قصصه تلك نتاجا ثريا لريشة فنانين ربما لا يذكر حتى أسماءهم · ومن يدري ؟ لعل اللوحات التي استوحى منها كانت هي الاخرى نتاجا ثريا لقصص رسمتها أقلام فنانين آخرين·

ولكنه خرج من المعرض في يومه ذاك وهو يفكر في اللوحة ، الرسم الذي يحمل عنوان : المرأة · لم تكن اللوحة موحية بمتعة آنية ، ولا الحت عليه أن يرسم قصتها · هي ، هي التي خلقت من الالوان والضياء صورة ··· « المرأة » هي التي كتبت قصتها ، ليست لقطة عابرة موحية ، انها قصة كاملة ·

وما تزال « المرأة » في احساسه ، يقظة تحدثه ، تقدم نفسها اليه تشعره بالحرج في تحديها واصرارها وعزيمتها ولهفتها وجاذبيتها ، تشعره بالتجاوب في حنانها وندائها وعطائها · عاد الى المعرض في يوم غير يومه مدفوعا بالحاح الرسم الذي رهن عنده فكره وقلبه · ومع الفنانة الرسامة كان يحاول أن يكتشف سر « المرأة » في عينيها الذكيتين وقدها الاهيف وحديثها الجذاب واقبالها اللامع وصفاء نظرتها وحنان صوتها ، وقلبها الكبير المنفتح ·

لم يستطع أن يؤكد لنفسه أنه كان مدفوعا باللوحة الفنية التي قدمت نفسها اليه في المعرض الهادىء حينما عرض عليها الزواج ، ولم يستطع أن يتأكد أنها كانت مدفوعة بالصورة التي قدمتها عنه المجموعة القصصية التي أهداها اليها في لقائهما الثاني ، حينما قبلت عرضه بالزواج ، ولكن الذي يعرفه أنه تزوج الفنانة التي أنجبت اللوحة « المرأة » · والذي تعرفه أنها تزوجت الفنان الذي أنتج القصة : « أنت لي ··· » ·

شقة بسيطة كانت مشهما الهادىء الدافىء ، لم يكن يرتاده صخب زوجين شابين يجريان الحياة معا لاول مرة · كان فيه من عالم الناس الحب والتقدير والتجاوب ، وكان فيه من عالم العقل تفكير مشترك في شؤون العلم والفن والادب والسياسة · يعيشان لمتعتهما الفنية والفكرية اكثر مما يعيشان لمتع الحياة التي اعتاد الآخرون أن يعيشوا لها · تجتذبهما واجهة مكتبة أو قاعة موسيقى أو صالة محاضرة أو مسرح، أكثر مما تجتذبهما واجهة ملابس أو جماليات أو قاعة سينما · يتحدثان في هدوء ويصوت منخفض يبلغ أحيانا درجة الهمس · الكلمات عندهما لا تؤدي بحروفها ، ولكنها أيضا تؤدي بجرسها : مهموسة أو صاخبة ، ذلك بعض دلالاتها · عرفا الحب وعرفا السعادة وعرفا التجاوب ، ولكنهما أيضا عرفا الخلاف ، الجدل ، الخصومة · كانا يتفقان في الفكر ويختلفان أحيانا في الشكل · كان يكتب في وضوح ويعبر ببساطة وقد تكون الفكرة أعمق من وضوحه وبساطته ، ولكنه كان يؤمن بأن من مهمة الكاتب أن يفتح المنغلق · وكانت ترسم بغموض وتزاوج بين الالوان المتنافرة ، تترك ريشتها أحيانا تعربد على سطح اللوحة وهي لا تدري الى أي قدر تسوقها · وتنطلق ضاحكة مستبشرة :

ـ نجحت الريشة · أن تعبر عما كنت أحس به ···

كان يختار وقت الاطمئنان النفسي والراحة البدنية

والفراغ من متاعب الحياة ليكتب قصة • كثيرا ما كان يكتب السطر الاول منها ثم يطوي الورقة أياما او أسابيع يعمق فيها الفكرة ، ويبحث فيها عن ذاته الهادئة المطمئنة لتعبر في جلاء عن الفكرة التي تملكته •

كانت تختار ساعة القلق النفسي ، الغضب ، الاضطراب أو حتى ساعة التعب الجسمي لتختلي الى لوحتها وريشتها • احيانا لم تكن تختلي • تطلق عنان المسجلة الصغيرة على موسيقى صاخبة ، ثائرة ، هائجة منفعلة وريشتها بين أصبعيها تتماوج مع الالوان في بطء حيوي •

الافكار مفككة ، التوازع متباينة ، صراع اليأس والامل يرجها رجا • تلك لحظة اندفاعها نحو الزاوية الصغيرة التي اختارتها كمرسم لها في منزلها الصغير الثاوي في الحي المتواضع الهادىء •

ويقف أمام اللوحة فاغرا فاه اعجابا • ولكنه يحاول أن يفهم •

ـ ليس المهم أن تفهم • لست مدرسة في قسم ابتدائي ••

ـ ولكني اريد أن أعرف : ماذا تقول اللوحة •

ـ انها تقول ما أردت أن تقوله

ـ ما هو ؟••

وتهز كتفيها في نشوة • ظفرت بالسؤال الذي كانت تبحث عنه : ما هو ؟ سر الحياة الغامض الذي نقوله لانفسنا في وحدتنا ، نهمس به لفكرنا لمشاعرنا • ولكننا لا نطيق الاعتراف • الفن وحده يستطيع أن يعبر عن هذا السر دون نفاق ، في غموضه وتداخل ألوانه وتقاطع خطوطه يعرب عما وراء الكلمات •

ويستسلم ، فهو صراع أبدي لا يطمع في أن ينتصر فيه ، فيعبر عن استسلامه بقبلة حب واعجاب يطبعها بين عينيها الطافحتين بالنصر • وهو يهتف :

ـ آه لو كنت أقل غموضا •••

وتأخذ اللوحة بمجامع قلبه • يسترق اللحظات الهادئة يجلس أمامها ، يسير في مواجهتها ، يقف خاشعا كما لو كان يتعبد في محراب • تقول له اللوحة الكثير • ويبتسم وهو يودعها • يعود اليها بعد أيام ليجلس ، ليسير ، ليقف ، وتقول له الكثير مما لم تتحدث به في المقابلة الاولى• ويبتسم وهو يودعها •

ـ أسرار المرأة • غامضة • أنت في حاجة الى وقت لتفهمي لك • لا تقول كل شيء • أنا شدائما في حاجة اليها ، سرها •

هكذا حدث نفسه وهو يلقي النظرة الاخيرة في احدى مقابلاته مع احدى لوحاتها •

وتستمع اليه يقرأ قصته ، وقد وضع لمساتها الاخيرة ، بأدنيها وعقلها معا : المنطق ، التحليل ، الفكرة ، العقدة ، الوصف ، الكلمات مختارة لامعة مشعة ، الواقع تكاد تلمسه بيديك ، الجو تعيشه بكل حواسك ، الاثارة ، الفرحة ، الحزن ، الغضب ، الامل ، تفاهة، سمو ، نفوس مريضة ، نفوس سليمة ••

وتقف أمام القصة فاغرة فاها اعجابا • وتسأل :

ـ ••• وماذا تريد أن تقول ؟

ـ قالت القصة كل ما أريد أن أقول •••

وتتطلع الى وجهه الصبوح في وضوحه فتطبع على خده قبلة تهنئة ، وهي تهتف :

آه لو كنت أقل وضوحا •••

وتسترق لحظات فائرة منفعلة فتقرأ القصة من جديد ، بعينيها هذ •المرة لا بأذنيها ، تعيد النظر في الكلمات ، في المقاطع ، في اللمسات ، تجرد الشخصية من كل مبادئها لتتعرف عليها في كل محاسنها ، تجردها من كل محاسنها لتتعرف عليها في مبادئها ، تجردها من كل محاسنها ومبادئها لتراها عارية قبل أن يمنحها الكاتب طعم الحياة • وتعجب لهذا الوضوح الذي يخفي الكثير :

ما وراء الكلمات ، الصورة ، التحليل ، التجاوب مع العواطف الانسانية •

من ذاته وقلبه وفكره منح هذه الشخصية • خلق وابداع • انه هو بكل ممكناته صاغ انسان هذه القصة •

كذلك تحدثت الى نفسها وهي تطوي آخر صفحة من الكراسة التي عاشت معها لحظات أرادت منها أن تكون بعيدة عن تأثير الصوت الذي ألفت أن يقتحمها دون أن تفكر طويلا فيما وراء الصوت •

وتسير بهما الحياة عادية ناعمة يتوزعها العمل ، ويجمع بينهما المرسم والمكتب ، كل منهما يعيش في عالم منفصل ، هي ترسم بالريشة والالوان ، هو يكتب بالقلم والحبر • والشقة الصغيرة تحيل عاليهما الى عالم واحد يلتقي فيه الرسم بالكتابة ، الغموض بالوضوح الرمز بالايحاء والايماء ، الاشارة العابرة بالتحليل •

ـ زهرة ••••؟

تطلعت اليه ـ وهما على مائدة عشـــاء ـ بعينين متسائلتين • وكان من عادتها الا تتحدث اليه أو تستمع اليه الا وعيناها سابحتان في وجهه ، كأنها تسبح بهما وكان وجهه الذي يتحدث • وجهه هذه المرة كان يتحدث في شيء من الانفعال • يريد أن يقول ، ولكنه يبدو غامضا • التقطت شخصيته كما التقطت شخصيتها فبدت واضحة ، وهي تسمع بعينيها ، وكأنها تشجعه على أن يخرج من عالم الغموض والاشارة والرمز • لم يسعه الا أن يكمـــل جملته •

ـ ••• ألا تحسين أننا فريدان ••••؟

وطاف بفكرها عالم المرسم ، يحفل بالشخصيات والافكار الوليدة ، عالم المكتب يحفل بالاصدقاء والصديقات وبالنفوس البريئة والشريرة جميعهم من ابداعهما وخلقهما• عاد بها التفكير الى ملاحظات عنه ظلت في منطقة الاستفهام : فرحة الاطفال تغمره كلما صادف في طريقه طفلا أو طفلة تجري نحو أحضان أمها ، تتباهى طفلات أو أطفال في مثل سنها • من مشهد كهذا اعترضه في حديقة عمومية ، أبدع قصة ما زالت تحظى لديه بالاعتزاز •

في ملتقى نظراتهما حومت كل هذه الارتسامات • كانت تهم بأن تجيب :

ـ لسنا فريدين • عالمنا طافح بالابناء والبنات •••

تراجعت عن الكلمة حسبتها موجعة وهي تقدر ما دفعه الى هذا السؤال الحزين • استجمعت كل شجاعتها ، أودعت كل انوثتها في عينين طافحتين بالبشر • هتف فيها الدقيق :

ـ قدم الطلب •••

عادت بها الذاكرة في العين الى ما كانا يقـــرآن في الليلة الماضية في ألف ليلة وليلة ، أكملت الجملة ، وضحكة عارمة ترن بين شفتيها :

ـ ••• جاريتك المطيعة رهن اشارة مولاي •••

احتضنها في قبلة عارمة • فقد نفضت عنه طبائع حزن خيم على حديثه وهو يدلي اليها بمشاعره • كان يشعر بالحزن والاسى حينما يزوران الاصدقاء فتطفح القامة بمناغاة الاطفال ولعبهم وحتى مضايقاتهم • وكان يسعى الى هذه الزيارات وقلبه طافح بالحب لهذا الطفل وتلك الطفلة • يحتضن هذا ويقبل ذلك حتى ربطت بينه وبين الاطفال صداقات •

ـ بابا سليم

ـ عمي سليم

هكذا كان الاطفال يلهجون بذكره وهم يتحدثون عنه ، وهم يستقبلونه على الابواب ، وهم يقفون دون الباب يمنعونه من أن يخرج اذا ما هم الرحيل •

تسربت شخصيات من عالم الطفولة الى قصصه • من حيث يدري أو لا يدري • كان يسعى الى أصدقائه ليتزود بملامح من عالم الاطفال ، فقد كانت تنقصه التجربة حينما تعترض طريقه وهو يرسم شخصية طفل أو طفلة في قصة من قصصه • شعر ، وزهرة تنعم بالقبول ، انه حقق نصف الهدف ، فسيكون له أطفال يملأون فراغه ،

يشعرونه بالبهجة ينتزعونه من عالم المكتب الى عالم الحياة.
كان يضيق أحيانا بمكتبه وزهرة في مرسمها ، يلجأ الى الكتاب والمجلة والصحيفة يستمد منها جميعا بعض الوحي، يخرج الى الشارع فيتطلع في وجوه الناس ويخبر أحاسيسهم من أصواتهم ، يعود الى ذكريات الماضي فيجتذب الافكار والمشاعر والشخصيات ، يلجأ الى الخيال فيجده أحيانا أكثر ضحالة من الواقع ، كم يكون سعيدا لو استطاع أن يلمس وجه طفلة له بكفيه ، أن يحتضن صباها الندن بين ذراعيه ، أن يقبل وجنتيها الناعمتين بفمه ، كم يكون سعيدا لو استطاع أن يكون أبا .

وكان بين الزوجين السعيدين تفاهم :

احست زهرة أنها أصبحت أما ، اقتحمت العالم الذي كانت تخشاه دون شعور ، كل أحلامها اتجهت نحو الامومة ، تملكتها صفات الام : الحنان ، الرقة ، الاشفاق ، التطلع، التفكير في الآخر ، تغيرت نظرتها الى سليم ، كانت تعتبره طفلا كبيرا ، أصبحت الآن تعتبره استاذا ملهما ، قادرا على العطاء ، شعرت بالحاجة اليه كما لم تشعر من قبل ، حياتها أصبحت بين يديه ، لم يعد يثيرها ـ كما كان يفعل أحيانا ـ وهو يلح ... لاحظت أن استجابتها أصبحت تلقائية ، عالمها حفل بالاطفال ، تتوقف عند واجهة أية مكتبة تبحث عن كتاب عن الطفولة ، حتى اعلانات التلفزيون عن غذاء الاطفال تشدها كطفلة كبيرة تحن الى أيامها القريبة الماضية وهي تلعب او تجري او تأكل ...

ونظرت اليه بعينين ناعستين ذابلتين فيهما سقم ، بهما احساس بالخوف ، كانت تهم أن تنطق ، تراجعت فان رهبة ما تتملكها ، لاول مرة تحس بشيء ، تريد أن تقضي بشيء ليس خجلا ما تحس به ، ولكنه ... لا تدري ما هو ...

تقلبت على مشاعرها ، طوت الصفحة لتعود الى الحديث العادي عن الحياة والناس والكتب والرسم .

عادت اليها الرغبة في الالتجاء ، ما تحس به لا تحتمل ان تجتره في وحدتها ، بنفس النظرة الذابلة والعينين بهما سقم همست شفتاها :

ـ سليم ...

توقفت قليلا ، لعل الكلمات نفسها لم تطاوعها ، ابتسمت بعينيها ، ظفرت منهما سعادة أتمت جملتها الهامسة :

ـ ... ستصبح أبا

جمدت أعصابه لا يدري له ... تسمرت عيناه في وجهها الطافح بالسعادة ، كان في حاجة الى قليل من الوقت ليصدق ، وانطلق اليها يغمر وجهها بالقبل ، ولم يتكلم .

مضت الايام بطيئة ثقيلة ، زهرة عزفت عن دنياه ، شيء ما كان يدفعها أن تتحاشاه تغيرت ملامحها ، ولكنها في شحوب وجهها كانت تضيء مستقبل حياته ، في قلقها كانت تشعره بالعطاء ، شيء ما يتحرك في هذه النفس لتصبح نفسين ، جسدين ، تجربة ، آه لو تمكن من أن يكتبها ... آه لو تمكنت من أن ترسمها ...

وكان المرسم ملجأها .

لم يكن يسمح لنفسه أن يقتحم عليها دنياها قبل أن تأذن ، قد مودته أن يكون أول من يرى لوحاتها بعد أن تطمئن اليها ، عودته أن تتحدث عن مشاريعها ، تناقش افكارها ، انطوت على نفسها ، كلمانها اليه أصبحت محدودة .

ـ التجربة الاولى .. لعلها قاسية

كذلك حدث نفسه وهو يناقش الازمة التي تجتازها زهرة .

كانت الكتب ملجأه ، يستفهم عن تجارب الحمل ، عن الامومة ، الطفولة .

جلس في مكتبه الهادىء ، زهرة لم تكن في البيت ، لا ليكتب ، ولكن ليضع تخطيطا للمستقبل ، الانس سيحل

بالمنزل الصغير - سيكون طفلا ، لا طفلة ، تناغي ، تحبو ، تصيح : بابا ... ماما ... تبكي ، تضحك ، تطلب ، تتعلق تجري ، تلعب ، تكسر ، تملأ البيت دفئا ، تصل ما بين المكتب والمرسم - ترى أية لوحة سترسمها زهرة لياسمين ؟ - زهرة تحت زهر الياسمين - ترتاح نفسها لرائحته - أية قصة سيكتبها عن ياسمين ؟ والازمة التي تمر بها زهرة ؟ الاشهر الثلاثة الاولى ... هكذا تقول الكتب - هكذا توقع الطبيب - وسيعود البشر الى وجه زهرة ، وستألف العشرة الطيبة مع ياسمين في اهاب واحد ، وستستعد نفسها لاستقبال عالمها الجديد ، عالم الامومة وسيمنح نصف ما يتمتع به من حبها لياسمين .... وستمنح زهرة نصف ما تتمتع به من حبه لياسمين -

ضحك من نفسه - أخذ يوزع الحب في قسمة عادلة : نصف حبي ، نصف حبها .... ياسمين ستتمتع بالحب كله - ستعد ان يضحي - زهرة مستعدة أن تضحي ..

وقفز على رنين حاد من جرس الباب استله من أحلامه -

ـ حادثة سيارة خطيرة على طريق الشاطىء - وزهرة في المستشفى -

لم تعد زهرة الى البيت - ولا ياسمين -

وحيدا في البيت البارد كان يلفاها في كل ركن ، تجلس اليه ، تتحدث ، تضحك عيناها ، تجادل ، تناقش ، تقرأ له وهو يسمع ، يوجهها البشر تطاردها في خلوته - في كل مكان كان يراها ، يسمع صوتها ، يحس بحركتها ، يتسمع الى أنفاسها في سريره ، تداؤها يوقظه من غفوته .. لم تنته زهرة من حياته -

والمرسم - محرابها المقدس لم يستطع أن يقتحمه ، كان يشعر بأنه سيجدها هناك - لا لن يجدها هناك ، كلاهما كان يدرج كيانه ، المرسم بدون زهرة سيكون خرابا - كل عبقريتها تحولت الى تراب ...

وظل المرسم ثاويا مهجورا بضعة أشهر -

ـ في المرسم كل أسرارها - من وراء القبر ستحدثك ، افتحه تسمع صوتها ، تتجلى لك بروحها ، خالدة زهرة في مرسمها ...

كذلك تحدث له عقله في غفلة من عاطفته -

وفتح بابا بالمرسم متهيبا -

زهرة كانت هناك -

على المحمل كانت اللوحة الكبيرة ، ما تزال الوانها طرية ، الريشة ومجمع الالوان ثاويان تحت قدميها ، المرآة بقدها الاهيف بلونها الشاحب ، القلق ممزوجا بالسعادة ينبع من عينيها الذكيتين ، بمزيجها ، باصرارها ، بتحديها ، بلهفتها ، بجاذبيتها ، بحنانها ، بنداتها ، بعطائها ، في ثيابها البيضاء الشفافة ، السابحة في الهواء ، في الفراغ اللا نهائي كما لو كانت ملاكا تقف بين الارض والسماء ، يداها ممتدتان الى أعلى في رجاء ، عيناها متطلعتان الى السماء في أمل ، من بين السحب ينفرج ضوء باهت يحيط بوليد لم تكتمل بعد انسانيته ، تجاوب كامل بين نظرة الرجاء والامل ، والنور الذي يحيط بالوليد المرتقب ....

ودمعة حرى تجلل الوجه الذي كان صبوحا قبل أن يفقد زهرة ،

أخذت اللوحة مكانها في غرفته -

وما يزال يتطلع اليها كل صباح كما لو كان ينتظر ان تتم زهرة لوحتها -

الرباط

عبد الكريم غلاب